

بيت يحيى ابراهيم - الجمعية
١٧٦ - ٢ - ١٧



ك

مجلة

آداب الرفيدين

١٨٥

تصدر عن كلية الآداب

جامعة الموصل

ADAB AL RAFIDAYN

Published by College of Arts

 University of Mosul

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

VOLUME 18

1988

المحتويات

- ١ - مسائل لغوية بين ابن القيم ولغويين قدامى ومتأخرين ٩
- ٢ - طيف الحبيبة في الشعر العربي قبل الاسلام
منحى تطبيقي في شعر عنترة ٢٩
- ٣ - علوم القرآن في غريب الحديث لابي عبيد ٦٩
- ٤ - حركة العطف بن سفيان الازدي قاضي اقالقلا ١٠٣
- ٥ - ابناء الشهرزوري ودورهم السياسي والقضائي والعلمي في القرن السادس الهجري «الثاني عشر الميلادي»
عبد الجبار حامد أحمد ١١٣
- ٦ - ملامح الصراع الحضاري والثقافي في الخليج العربي ١٢٠
- ٧ - تأثيرات مدرسة بغداد في التصوير على المسكوكات الارتقية المصورة
عبد الواحد الرمضاني ١٦١
- ٨ - الخصائص التي يفضلها طلبة الجامعة في مدرسيهم
زيد عبد الكريم ١٩٣
- ٩ - التشغيل الخارجي لتزلاء قسم اصلاح الكبار
دراسة ميدانية في قسم اصلاح نينوى
د. سظام حمد الجبوري / عبد الله مرقس رابي ٢١٧
- ١٠ - واقع الرعاية الاجتماعية للمعوقين في العراق
د. حميد كردي الفلاحي ٢٤٥

- ١١ - تأثير قانون الاحوال الشخصية على نسبة الطلاق
 د. ليلى عبد الله سعيد ٢٦٩
- ١٢ - الادارة الامريكية و استراتيجية النظريات ازاء العراق والخليج العربي في عقد
 الثمانينيات
 محمود سالم السامرائي ٢٩٧
- ١٣ - ضمانات الاحداث في مرحلة التحقيق الابتدائي
 حسن عودة زعال ٣٣١
- ١٤ - المركز القانوني للدارسين على نفقة الدولة
 محمود عبد الله حمود ٣٥٧
- ١٥ - الحرب العراقية الايرانية من وجهة نظر القانون الدولي العام
 د. محمد باقر محمد ٣٨٩
- ١٦ - خدمات المعلومات في المكتبات الجامعية
 محمود صالح اسماعيل ٤٢٩
- ١٧ - تقويم واقع المناطق المفتوحة العامة في مدينة الموصل
 داؤد سليم داؤد ٤٤٩

مسائل لغوية بين ابن القيم ولغويين

قدامى ولغويين

د حازم طه

كلية الآداب / جامعة الموصل

عرف ابن قيم الجوزية أنه إمام من أئمة الفقه الإسلامي وأصوله ، يحتج المعنيون بهذا اللون من العلم والمعرفة بأرائه ، وقد يبدو غريباً حين نعرف أن له آراء بارعة ، وبحوثاً متميزة في اللغة مبنوثة في مؤلفاته .

وقد لفت نظري ملاحظ له لآي من القرآن الكريم تدلّ دلالة قوية على تمكنه من ناحية اللغة ، وحسن ذوقه . فهو حين يعرض لمبحث من المباحث في اللغة يورد آراء المفسرين أو النحاة فيه ، ثم يورد مأخذه على أقوالهم ، مبيناً وجهة نظره ، ومن هنا جعلت البحث عنه ، وآثرت أن يكون عنوانه (مسائل لغوية بين ابن القيم ولغويين : قدامى ومتأخرين) ونسوق بعض المباحث اللغوية التي تناولها ابن القيم الجوزية لتوضح الرأي الذي أدلى به بين الدلاء .

وجه تذكير خبر رحمة الله في :

قوله تعالى : - (انّ رحمة الله قريب من المحسنين) (٢) .

- (١) هو ابو عبدالله شمس الدين محمد بن ابي بكر بن ايوب بن سعد الدمشقي . ولد في صفر سنة ٥٦٩١ هـ . وتوفي سنة ٥٧٥١ هـ ، وكان عالماً فقيهاً مفسراً محدثاً اصولياً وقد خلف مؤلفات عديدة ، منها : اعلام الموقعين عن رب العالمين ، وبدائع الفوائد ومدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، والجيوش الاسلامية انظر بغية الوعاة ١/٦٢ ، ٦٣ وشذرات الذهب ٦/١٨٦ .
- (٢) سورة الاعراف . رقم الآية ٥٦ .

لقد اختلفت أئمة اللغة والمفسرون في وجه تذكير خبر رحمة الله . وسنيسط آراءهم مبينين وجهات نظرهم ، ثم نعقب بما نرى انه الوجه السديد الجدير بالاختيار مع بيان علة الاختيار . وقد تتبعنا ما استطعنا اليه سبيلا من الآراء مؤثرين ايرادها مرتبة ترتيباً زمنياً .

« الفراء ٢٠٧ هـ »

قال : ذكرت قريبا لانه ليس بقراة في النسب .

ورأيت العرب تؤنث القرية في النسب لا يختلفون فيها ، فاذا قالوا : دارك منا قريب ، او فلانة منك قريب في القرب والبعد ذكروا وانثوا ، وذلك ان القريب في المعنى وان كان مرفوعا ، فكانه في تأويل : هي من مكان قريب فجعل القريب خلفا من المكان كما قال الله تبارك وتعالى (وما هي من الظالمين ببعيد) (١) . وقال : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) (٢) ، ولو أنث ذلك فبني على بعدت منك فهي بعيدة وقربت فهي قريبة كان صواباً حسناً . وقال عروة : (٣)

عشية لاعفراء منك قريبة فتدنوا ولاعفراء منك ببعيد ومن قال بالرفع وذكر لم يجمع قريبا ولم يشته . ومن قال : ان عفراء فيك قريبة او بعيدة ثنى وجمع (٤) .

فرد عليه الزجاج قائلا : هذا غلط ، بل كل ما قرب من مكان او نسب فهو جائز التأنيث والتذكير (٥) .

« أبو عبيدة ٢١٠ هـ »

وقال أبو عبيدة : (ان رحمة الله قريب من المحسنين) هذا موضع يكون في المؤنثة والشتين والجمع منها بلفظ واحد ولا يدخلون فيها الهاء ، لأنه ليس بصفة ولكنه ظرف وموضع . والعرب تفعل ذلك في قريب وبعيد . قال : (٦)

- (١) سورة هود : رقم الآية ٥٦ .
- (٢) سورة الاحزاب : رقم الآية ٦٣ .
- (٣) هو عروة بن حزام العذري (هامش معاني القرآن للفراء)
- (٤) الفراء . معاني القرآن ١/٣٨٠ - ٣٨١ .
- (٥) الطبرسي ، مجمع البيان ٤/٤٢٩ .
- (٦) لم اقف على قائله .

فان تمس ابنة السهمي منا بعيداً لانكلمهما كلاماً (١)
الاخفش الاوسط ٢١٠ هـ

أما الاخفش الاوسط فقد قال : فذكر (قريب) وهو صفة الرحمة ، وذلك كقول
العرب « ريح طريق » و ملحقة جديد » ، وشاة سديس .

وان شئت قلت : « تفسير الرحمة » هاهنا (المطر ونحوه) فلذلك ذكر كما قال :
(وان كان طائفة منكم آمنوا) (٢) فذكر لأنه اراد « الناس » .

وان شئت جعلته كبعض ما يذكرون من المؤنث ، كقول الشاعر (٣)

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض ابقال ابقالها (٤)

ورد عليه الالوسي قائلاً : ان الرحمة التي هي المطر ، لا تختص بالمحسنين لان الله سبحانه
يرزق الطائع والعاصي ، ولو قلت مطر الله قريب لوجدت هذه الاضافة مما تمجها الأسماع
وتنبو عنها الطباع بخلاف ان رحمة الله قريب ، وانما المختص في عرف النوع هو الرحمة
التي هي الغفران والتجاوز والثواب . (٥)

الانباري (٣٢٨)

اما الانباري فقد قال : ذكر (قريباً) ، يجوز ان يكون ذكره على معنى ان فضل الله ،
قريب .

وقال الاخفش : هو محمول على معنى ان مطر الله قريب (٦)

« النحاس ٥٣٣٨ »

اما النحاس فقد اتى بستة اراء مشيراً الى احسنها فقال : ومن احسنها : ان الرحمة
والرحم واحد ، وهي بمعنى الغفر والغفران . كما قال زياد الاعجم .

(١) ابو عبيدة . مجاز القرآن ١/٢١٦ .

(٢) سورة الاعراف . رقم الآية ٨٧ .

(٣) هو عامر بن جوين الطائي .

(٤) الاخفش ، معاني القرآن ، دراسة وتحقيق عبدالامير الورد ، رسالة دكتوراه مطبوعة
بالرونيو .

(٥) الالوسي . روح المعاني ٥٢١٣ .

(٦) الانباري . المذكر والمؤنث ص ٤٦٢ .

ان السماحة والمروءة صمنا

قبراً بمرور على الطريق الواضح

قيل : اراد بالسماحة السخاء ، وبالمروءة الكرم .

وقال : ويجوز ان يكون هذا على النسب ، كما قيل : امرأة طالق وحائض (١)

و هذا الرأي الذي استحسنته لم نجده فيمن ذكرناهم سابقاً من الباحثين في الدراسات ،
القرآنية .

«الطوسي ٥٤٨٠»

واما الطوسي ، فقد عرض رأي القراء ، ثم اعقبه برأي الزجاج « بين فيه ان الزجاج

وقف معارضاً لرأي القراء . ولم نره يفصل بين الرأيين بكلمة ، بل اكتفى بعرضهما . (٢)

«الزمخشري ٥٥٣٨»

وجعل الزمخشري (٣) الآية من قبيل قوله تعالى (واني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً)

أي علق فيها الرحمة باحسان الاعمال . كما علق الغفران فيه بالتوبة والايمان والعمل
الصالح .

«الطبري ٥٥٤٨»

قال : والوجه في تذكيره هنا ، ان الرحمة والغفران والعفو في معنى واحد ، وكذلك كل
تأنيث ليس بحقيقي .

ثم قال : وقال الاخفش : جائز ان يكون اراد بالرحمة هنا « المطر » فلذلك ذكره

ومثله قول الشاعر : (٥)

بأبيها التراكب المزجي مطيته سائل بني اسد ماهذه الصوت

أي ، ماهذه الصيحة . وقول الآخر : (٦)

(١) النحاس ، اعراب القرآن ٦١٩/١٠ .

(٢) الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن ٤٢٦/٤ .

(٣) الزمخشري ، الكشاف ١١٠/٢ .

(٤) سورة طه ، رقم الآية ٨٢ .

(٥) هو روشيد بن كثير الطائي .

(٦) هو زياد الاعجم .

ان السماحة والمرؤة صمنا قبرا بمرور على الطريق الواضح (١)
وتأويل الرحمة بمعنى المطر هو احتمال واه بعيد لانسلم به ، وقد أبان الزمخشري
السبب بقوله لان رحمة الله هي الغيث واثرها النبات . (٢)

«الرازي ٥٦٠٦هـ»

«القرطبي ٥٦٧١هـ»

اما الرازي والقرطبي فانهما أوردا آراء من سبقهما ولم يرجحاً رأياً على آخر (٣)
«أبو حيان ٥٧٤هـ»

أورد أبو حيان آراء من سبقه ايضاً ، بيد انه اورد رأياً لم يرد عندهم وهو معنى «قريبة
الثواب» ونسبة الى جبير (٤)

«أبو السعود ٥٨٨٦هـ»

أضاف الى ماورد من آراء رأياً اخر ، وهو تذكير قريب لاكتساب التذكير من المضاف
اليه ، كما ان المضاف يكتسب التأنيث من المضاف اليه «(٥)» .
ان العرب تعطي المضاف حكم المضاف اليه في التذكير والتأنيث اذا صح الاستغناء
عنه ، وهو امر مشهور ، فالرحمة لاضافتها الى الاسم الجليل قد اكتسب ماصح الاخبار
عنها بالمذكر .

قال الروذراودي : ان اكتساب التأنيث في المؤنث قد صح بكلام من يوثق به .
واما العكس فيحتاج الى الشواهد ، ومن ادعى الجواز فعليه البيان . (٦)

«الألوسي»

وذهب الألوسي الى ان ذلك على حذف مضاف ، أي مكان رحمة الله قريب . فالاخبار
انما هو عن المكان ، وهو مذكر ، ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مشيراً الى الذهب
والفضة «ان هذين حرام» فان الاخبار بالمفرد ، لان التقدير : ان استعمال هذين . وقول
حسان : (٧) .

(١) الطبرسي ، مجمع البيان ٤/٤٢٩ .

(٢) انظر الكشاف ٢/١١٠ .

(٣) الرازي ، التفسير الكبير ١٤/٩٣٧ ، القرطبي ، احكام القرآن ٧/٢٢٧ .

(٤) أبو حيان ، البحر المحيط ٤/٣١٢ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢/١٧٠ .

(٦) انظر ، روح المعاني ٣/٥٢ .

(٧) هو حسان بن ثابت ،

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
فانه بتقدير : (ماء بردى) فلذا قال يصفق بالتذكير مع ان بردى مؤنث (١) وقبل ان نورد
رأي ابن القيم ينبغي لنا ان نشير اليه في هذا الصدد . اننا اعتمدنا . في طلب هذه الغاية
أي وجه تذكير رحمة الله - متون المعاجم اللغوية فخرج لنا من كل اولئك ما أنا مورده
قال ابن منظور في مؤلفه (٢) : فانما ذكر على النسب وكأنه اكتفى بذكر الرحمة عن
الهاء : وقيل : انما ذلك لأنه تأنيث غير حقيقي . وهذا رأي لا ينفع في هذا المقام غليلا
بعد هذا نعود الى ابن القيم .
اما ابن قيم الجوزية فقد اورد رأيين (٣) :

الاول :
ان هذا من باب الاستفتاء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعاً له ، ومعنى من معانيه
فاذا ذكر أغنى عن ذكره لانه يفهم منه . ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى (ان نشأ
ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين) (٤) فاستغنى عن خبر الاعناق
بالخبر عن اصحابها . (٥)

- (١) الالوسي ، روح المعاني ٥٠/٣ ، ٥١ .
- (٢) ابن منظور لسان العرب ٢٣٠/١٢ .
- (٣) ابن القيم / بدائع الفوائد ١٣/٣ .
- (٤) سورة الشعراء رقم الآية ٤ .
- (٥) أورد ابو حيان اراء ما قيل في تخريج هذه الآية فقال : قال الزمخشري فان قلت كيف
صح مجيء خاضعين خبراً عن الاعناق ، قلت اصل الكلام فظلوا لها خاضعين فافتحمت
الاعناق موضع الخشوع وترك الكلام على اصله كقولهم : ذهب اهل اليمامة ، كان الاهل غير مذكور .
وقال مجاهد وابن زيد الأخفش : جماعاتهم ، يقال : جاءني عنق من الناس ، اي جماعة
وقيل اعناق الناس : رؤسائهم ومقدموهم ، شبهوا بالاعناق ، كما قيل : « لهم الرؤس
والنواصي والصدو » قال الشاعر :

« في محفل من نواصي الخيل مشهود »

وقيل : اريد الجراحة
وقال عيسى : على حذف مضاف ، أي اصحاب الاعناق ، وروعي هذا المحذوف في
قوله خاضعين حيث جاء جمعاً للمذكر العاقل وضعه فأخبر عنه اخباره كما يكتسى المذكر
التأنيث من اضافته إلى المؤنث في نحو كما شرقت صدر القناة من الدم .
أولا حذف ولكنه لما وضعت لفعل لا يكون الا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع
جمعت ، كما جاء « أتونا طائعين » (البحر المحيط ٥/٧ ، ٦) .

ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى « والله ورسوله احق ان يرضوه » (١) .
والمعنى والله احق أن يرضوه ورسوله كذلك . فاستغنى باعادة الضمير الى الله ، اذا رضاءوه هو
ارضاء رسول الله فلم يحتج ان يقول « بضمهما » فعلى هذا يكون الاصل في الآية (ان الله
قريب من المحسنين) فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الوجود ، وسوغ ذلك ظهور المعنى .
وهذا المسلك مسلك حسن اذا كسي تعبيراً أحسن من هذا ، وهو مسلك لطيف المتزع
دقيق على الافهام وهو من أسرار القرآن .

والذي ينبغي ان يعبر عنه به ، ان الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى ، والصفة
قائمة بالموصوف لا تفارقه ، لان الصفة لا تفارق موصوفها فاذا كانت قريبة من المحسنين
فالوصوف تبارك وتعالى بالقرب منه ، بل قرب رحمته تبع تقربه هو تبارك وتعالى من
المحسنين .

فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ، ورحمته قريبة منهم ، وقربه يستلزم قرب
رحمته ، ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة ، وان الله تعالى قريب
من المحسنين . وذلك يستلزم القربين وقربه وقرب رحمته ، ولو قال ان رحمة الله قريبة
من المحسنين ، لم يدل على قربه تعالى منهم ، لان قربه تعالى اخص من قرب رحمته ،
والأعم لا يستلزم الاخص بخلاف قربه ، فانه لما كان اخص استلزم الأعم ، وهو قرب
رحمته ، فلا تستهين بهذا المسلك فان له شأنًا وهو متضمن لسر بديع من اسرار القرآن .
الثاني :

(١) سورة التوبة . رقم الآية ٦٢ .
اورد ابو حيان اراء ما قيل في تخريج هذه الآية فقال : قال ابن عطية : مذهب سيبويه
انهما جملتان حذف الأولى لدلالة الثانية عليهما ، والتقدير عنده ، والله احق ان يرضوه
ورسوله احق ان يرضوه .

ومذهب المبرد ان في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وتقديره « والله احق ان يرضوه ورسوله
والذي نقوله - اي ابو حيان - انه لما كانت طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله
كما قال (من يطع الرسول فقد اطاع الله) صار لذلك متلازمين كالشيء الواحد ، فأخبر عنهما
أخبار الواحد ، فافرد الضمير كما قال الشاعر :
«بها العينان تنهل» .

ولم يقل «تنهلان» ، وقالت : يوم وليلة مرابي ، تريد مرابي ، فافرد الضمير
لتلازمهما (الدر اللقيط : حاشية البحر المحيظ ٥/٦٣) .

وان شئت قلت : قربه تبارك وتعالى من المحسنين ، وقربه رحمته منهم متلازمان لا ينفك احدهما عن الاخر ، فاذا كانت رحمته قريبة منهم فهو ايضاً قريب منهم . واذا كان المعنيان متلازمين صح ارادة كل واحد منهما فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الاحسان واستدعائه من النفوس ، وترغيمها فيه غاية حظ لها ، واشرفه واجله على الاطلاق ، وهو افضل اعطاء اعطيه العبد ، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأمانى ونهاية الامال ، وقررة العيون ، وحياة القلوب ، وسعادة العبد كلها ، فكان في العدول عن قريبة الى قريب من استدعاء الاحسان وترغيب النفوس فيه بعد ان بسطنا آراء ائمة اللغة والمفسرين في وجه تذكر «قريب» (واختلافهم فيه ، وانهم لم يتفقوا على رأي واحد نرى ان الرأي السديد ، هو ماأورده ابن القيم الجوزية ، وهو استغناؤه بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى ، وهو ملحظ دقيق له وجاهته ، وله شواهد تؤيده .

وانطلاقاً من هذا الملحظ نقول ، لانكران ان العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف في كلامها وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى كانت الدلائل على ذلك المحذوف ولو كان من اجزاء الجملة ومقوماتها . واني لأسوق آيات من القرآن الكريم لانه قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره ، فانه الدليل والمدلول عليه .

من ذلك قوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) (١)

ظاهرة الآية ان « مبصرة » وصف للناقة ، وعلى هذا يكون المراد ان الناقة لم تكن عمياء ، وهي على هذه الصفة لاتعد آية من آيات الله لنبيه . لانها ناقة قد برئت من العمى .

وقوله تعالى في آية ثانية (هذه ناقة الله لكم آية) (٢) .

وقوله تعالى في آية ثالثة (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا اية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) (٣)

ومن نظر في هذه الايات وتدبرها حق التدبر اوجب له تدبره ان في الاية الكريمة حذفاً ، وتأويل الاية يكون (وآتينا ثمود الناقة آية مبصرة) ومن بديع ذلك قوله عز وجل

(١) سورة الاسراء آية ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف رقم الآية ٧٣ .

(٣) سورة الاسراء رقم الآية ١٢ .

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسهقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فستمي لهما ثم تولى الى الظل قال ربّ اني لما أنزلت الي من خير فقير) (١)

فان في هاتين الايتين حذف المفعول به في اربعة أماكن ، اذ المعنى وجد أمة من الناس ، يسهقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان مواشيهما ، وقالتا لانسقي مواشينا فسقي لهما مواشيهما. لان الغرض ان يعلم انه كان من الناس سقى . ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء ، وانه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي (٢) وهذه طريقة القرآن ، ان يذكر الشيء في موضع ثم يحذفه في موضع آخر للدلالة المذكور على المحذوف .

فيما يتصل بمعنى كاد في

النفي والأثبات في الآية الكريمة :

قال الله تبارك وتعالى (كسراب بقية يحسبه الظمان ماءً ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكده يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (٣)

نرى ابن قيم الجوزية يقف وقفة طويلة امام كلمة «كاد» وما لها من معان ان كانت منفية او غير منفية ، وقبل ان يورد رأيه يورد آراء النحويين في ذلك فيقول (٤) :

فقال كثير من النحاة (٥) : هو نفي لمقاربة رؤيتها : وهو أبلغ من نفيه الرؤية وانه قد ينفي وقوع الشيء ولا ينفي مقاربه . فكأنه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه . قال هؤلاء «كاد» من افعال المقاربة ، لها حكم سائر الافعال في النفي والاثبات ، فاذا قيل كاد يفعل فهو اثبات مقاربة الفعل ، فاذا قيل : لم يكده يفعل ، فهو نفي لمقاربة الفعل .

(١) سورة القصص رقم الآية ٢٣ .

(٢) ابن الأثير ، المثل السائر ٩٧/٢ .

(٣) سورة النور رقم الآية ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) ابن القيم ، التفسير القيم ص ٣٨٣ .

(٥) انظر شرح الاشموني ٤٦٦/١ .

وقالت طائفة اخرى (١) بل هذا دال على انه انما يراها بعد جهد شديد وفي ذلك اثبات رؤيتها بعد اعظم العسر ، لاجل تلك الظلمات . قالوا : لان « كاد » لها شأن ليس لغيرها من الافعال ، فانها اذا اثبتت نعت ، واذا نعت اثبتت ، فاذا قلت ماكدت اصل اليك فمعناه : وصلت اليك بعد الجهد والشدة . فهذا اثبات للوصول . واذا قلت كاد زيد يقوم ، فهي نفي لقيامه كما قال تعالى (وانه لما قام عبدا لله يدعو كادوا يكونون عليه لبدا) (٢) ومنه قوله تعالى (وان يكادوا الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر (٣) وانشد بعضهم في ذلك لغزاً :

أنحوى هذا العصر : ساهي لفظه جرت في لسان جرهم . وثمود
واذا استعملت في صورة النفي أثبتت فان أثبتت قامت مقام جحود
وقالت فرقة ثالثة : (٤) ان استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها ، كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الاولى . فهي عنده تنفي الخبر ، سواء كانت منفية أو مثبتة ، فلم يكذ زيد يقوم أبلغ عنده في النفي من لم يتم . واحتج بانها اذا نفيت وهي من افعال المقاربة فقد نمت مقارنة الفعل ، وهو أبلغ من نفيه واذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقارنة اسمها لخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه . واعتذر عن مثل قوله تعالى ، (فذبحوها وما كادوا يفعلون) (٥) . وعن مثل قوله : وصلت اليك وماكدت اصل ، وسلمت وماكدت أسلم . بأن هذا وارد على كلامين متباينين ، أي فعلت كذا بعد ان لم اكن مقارباً له ، فالأول يقتضي وجود الفعل ، والثاني يقتضي انه لم يكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه فهما كلامان مقصود بهما امران متباينان .

وذهبت رقة رابعة (٦) : الى ان الفرق بين ماضيها ومستقبلها . فاذا كانت في الاثبات فهي لمقاربة الفعل . سواء كانت بصفة الماضي او المستقبل ، وان كانت في طرف النفي فان كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربتة ، نحو قوله تعالى (لم يكذ يراها) (٧)

- (١) انظر هامش الاشموني ٤٦٧/١ .
- (٢) سورة الجن رقم الآية ١٩ .
- (٣) سورة القلم رقم الآية ٥١ .
- (٤) انظر دلائل الاعجاز ص ١٨١ .
- (٥) سورة البقرة رقم الآية ٧١ .
- (٦) انظر هامش الاشموني ٤٦٨/١ .
- (٧) سورة النور رقم الآية ٢٤ .

وان كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الاثبات نحو قوله (فذبحوها وما كادوا يفعلون)
فهذه اربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة .

قال ابن قيم الجوزية :

والصحيح : انها فعل يقتضي المقاربة ولها حكم سائر الافعال ، ونفي الخبر لم يستفد
من لفظها ووضعها . فانها لم توضع لنفيه . وانما استفيد من لوازم معناها ، فانها اذا
أقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً فيكون منفيّاً باللزوم اما اذا استعملت منفية فان
كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة . كما اذا قلت لا يكاد البطل يفلح ،
ولا يكاد البخيل يسود ولا يكاد الجبان يفرح ، ونحو ذلك .
وان كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد ان لم يكن مقارباً فهذا التحقيق في
امرها .

والمقصود ان قوله (لم يكد يراها) (١) اما ان يدل على انه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة
وهو الاظهر ، فاذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها ؟
قال ذو الرمة :

اذا غير النأي المحبين ، لم يكد

رسيس (٢) الهوى من حب مية يبرح

أي لم يقارب البراح . وهو الزوال ، فكيف يزول ؟

يجدر بنا بعد ان عرضنا الاراء التي قيلت في كاد في النفي والاثبات أن نقول : ان
الفعل كاد الموضوع في كلام العرب للمقاربة ، حكمه حكم سائر الافعال في الإثبات
والنفي ، وهو ماذهب اليه اكثر النحاة ، فاذا قيل « كاد يرى » مثلاً ، أفاد اثبات مقاربة
الرؤية ، واذا قيل « لم يكد يرى » ، أفاد نفي ، مقاربة الرؤية ، ونفي كاد أبلغ من نفي
الفعل الداخلة عليه لان نفي مقاربه يدل على نفيه بطريق برهاني .

والاية الكريمة ، تنفي مقاربة الرجل رؤية يده ، وقائع الرؤية هو شدة الظلمة ، فهي لم
تكن اصلاً ، ولاقاربت في الظن أن تكون ، ومحال ان يوجب نفي المقاربة وجود الفعل
ولذلك لا يتوجه السؤال . « فاذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها ؟ »

(١) سورة النور آية ٢٤ .

(٢) الرسيس : الثابت الذي لزم مكانه .

وينطبق هذا التحقيق نفسه على بيت ذي الرمة ، ومعناه واضح جداً .. فان مراده فيه ان قديم هوى «مئة» لم يقرب من الزوال في جميع ازماته ، فهو قد نفى مقاربة زواله ، ونفى المقاربة يدل على نفي الفعل .

ونرى ابن قيم الجوزية ألابطمئن كل الاطمئنان الى آراء بعض المنسرين أو النحرين في تناولهم بعض الآيات القرآنية . فلذا نراه يناقش الزمخشري وابن مالك في تخريج الاستثناء في الآية الكريمة (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله ؟) (١)

قال الزمخشري : هو استثناء ، جاء على لغة تميم ، لان الله تعالى وان صح الأخبار عنه بأنه في السموات والارض . فانما ذلك على المجاز ، لانه مقدس عن الكون في المكان بخلاف غيره ، فان الأخبار عنه بأنه في السماء او في الارض ليس بمجاز (٢)

وقال ابن مالك (٣) : والصحيح عندي ان الاستثناء في الآية متصل . وفي متعلقه ، بفعل غير استقر من الافعال المنسوبة حقيقة الى الله تعالى والى المخلوقين كذكر ويذكر ونحوه ، فكأنه قيل : لا يعلم من يذكر في السموات والارض الغيب الا الله ، ويجوز تعليق في باستقر الى مضاف حذف واقيم المضاف اليه مقامه ، والأصل لا يعلم من استقر ذكره في السموات والارض الغيب الا الله ثم حذف الفعل والمضاف واستتر المضمير ، لكونه مرفوعاً . وهذا على تسليم امتناع ارادة الحقيقة والمجاز في حال ، وليس ممتنعاً لقولهم القلم احد اللسانين ، والخال احد الابوين وقوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبي) (٤) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « الايدي ثلاثة يد الله ، ويد المعطي ، ويد السائل .

ويفصل ابن القيم القول في تعليقه ورده ، وتعليه على ماوراء هذا الاستثناء من معان دقيقة اذ يقول : « فهذا كلام هذين الفاضلين في هذه الآية ، وانت ترى ما فيه من التكلف الظاهر الذي لا حاجة بالاية اليه ، بل الامر اوضح من ذلك . وخلاصة رأيه : -

١ - الصواب ان الاستثناء متصل . وقوله على لغة تميم : يريد ان من لغتهم ان الاستثناء المنقطع يجوز اتباعه كالم متصل ان صح الاستثناء به عن المستثنى منه ، وقد صح ههنا ، اذ يصح ان يقال : لا يعلم الغيب الا الله .

(١) سورة النحل : رقم الآية ٦٥ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ٦٢/٣ . وانظر أبا حيان البحر المحيط ٩١/٧ .

(٣) المصدران انفسهما .

(٤) سورة الأحزاب رقم الآية ٥٦ .

٢- وليس في الآية استعمال اللفظ في حثيثته ومجازه ، لان من في السموات والأرض مهنا ابلغ صيغ العموم ، وليس المراد بها معينا فهي في قوة احد المنفي بقولك لايعلم احد الغيب الا الله ، واتى في هذا بذكر السموات والارض تحقيقاً لارادة العموم والاحاطة . فالكلام مؤد معنى لايعلم احد الغيب الا الله .

٣- نشأ الوهم في ظنهم ان الظرف مهنا لاخصميص والتقييد ، وليس كذلك بل لتحقيق الاستغراق والاحاطة ، فهو نظير الصفة في قوله تعالى (ولاطائر يطير بجناحيه) (١) فانها ليست للتخصيص والتقييد بل لتحقيق الطيران المدلول عليه بطائر ، فكذلك قوله من في السموات والارض لتحقيق الاستغراق (المقصود بالنفي) ، ومن تأمل الآية علم انه لم يقصد بها الا ذلك (٢) .

وان نظرة صادقة لتحكم من غير ترود بان ابن القيم كان مصيبا في رأيه ، كما انه لم يلجأ الى تأويل فيه ارهاق واعنات .

ثم هو لايقف عند ماقرره ووضحه في الآية الكريمة فحسب . بل نراه يتوسع في الرد والشرح فيقول : وقد قيل : انه لايمتنع أن يطلق عليه تعالى انه في السموات ، كما اطلقه على نفسه واطلق عليه رسوله ، قالوا ولا يلزم ان يكون هذا الاطلاق مجازاً ، بل منه الحقيقة التي تليق بجلاله ، ولايشابهه فيها شيء من مخلوقاته هذا كما يطلق عليه انه سميع بصير عليم قدير حي مرید حقيقة . ويطلق ذلك على خلقه حقيقة ، والحقيقة المختصة به لاتماثل الحقيقة التي لخلقه متناول الاطلاق بطريق الحقيقة لهما لايستلزم تماثلهما حتى يفرضه الى المجاز ، واما قوله ان الظرف متعلق بفعل غير استقر من الافعال المنسوبة الى الله والى المخلوقين حقيقة ، كذكر ويذكر الى آخره ، فيقال حذف عامل الظرف لايجوز إلا اذا كان كونا عاما، او استقرارا عاما ، فاذا كان استقرارا او كونا خاصاً مقيداً لم يجز حذفه ، وعلى هذا جاء مصرحاً به في قوله تعالى (فلما رآه مستقراً عنده) (٣) لان المراد به الاستقرار الذي هو الثبات واللزوم لامطلق الحصول عنده ، فكيف يسوغ حذف عامل الظرف في موضع ليس بمعهود حذفه فيه ، وأبعد من هذا التقدير ما ذكره في

(١) سورة الانعام رقم الآية ٣٨ .

(٢) ابن القيم الجوزية بدائع الفوائد ٦٢/٣ .

(٣) سورة النمل رقم الآية ٤٠ .

التقدير الثاني ان عامل الظرف استقرار مضاف الى ذكر محذوف استغنى به عن المضاف اليه والتقدير استقر ذكره ، فان هذا لانظير له ، وهو حذف لادليل عليه ، والمضاف يجوز ان يستغنى به عن المضاف اليه بشرطين ، ان يكون مذكوراً ، وان يكون في معلوم الوضع مدلولاً عايه لئلا يلزم اللبس واما ادعاء اضافة شيء محذوف الى شيء محذوف ثم يضاف المضاف اليه الى شيء آخر محذوف من غير دلالة في اللفظ عليه . فهذا مما يضان عنه الكلام الفصيح ، فضلاً عن كلام رب العالمين وأما قوله على انه لا يمتنع ارادة الحقيقة والمجاز معاً ، واستدلاله على ذلك بقولهم : القلم احد اللسانين . فلا حاجة فيه لان اللسانين اسم مثنى فهو قائم مقام النطق باسمين ، اريد باحدهما الحقيقة وبالآخر المجاز ، وكذلك الحال احد الابوين ، وكذلك الايدي ثلاثة ، واما قوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبي) (١) فالاستدلال به بعد هذا كله ، فان الصلاة على النبي من اله وملائكته حقيقة بلا ريب والحقيقة المضافة الى الله من ذلك لاتماثل للحقيقة المضافة الى الملائكة ، كما اذا قيل الله ورسوله والمؤمنون يعلمون ان القرآن كلام الله ، لم يجر ان يقال ان هذا استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه وان كان العلم المضاف الى الله غير مماثل للعلم المضاف الى الرسول والمؤمنين فتأمل هذه النكتة البديعة . (٢)

ومن هنا نعلم ان تأويل الآية الكريمة على الوجه الذي اتى به ابن القيم الجوزية رائق معجب ، يدل دلالة واضحة على حصافة وتفطن ، وبصر بدقائق المعاني ومنازع الكلام وهو أجدى وخليق بالقبول وأولى بالاتباع عن غيره .

هذا وقد قلنا فيما سبق انه ذو بصر بدقائق المعاني ومنازع الكلام ، وان نحن نظرنا نظرة متأنية إلى تخريجه معنى (على) في قوله تعالى (صراط عليّ مستقيم) يظهر لنا ذلك بجلاء .

قال تعالى (صراط عليّ مستقيم) (٣)

قال : قال الحسن معناه (صراط إلى مستقيم) (٤)

-
- (١) سورة الأحزاب ، رقم الآية ٥٦ .
 - (٢) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ٦٢/٣ .
 - (٣) سورة الحجر ، رقم الآية ٤١ .
 - (٤) ابن القيم الجوزية ، التفسير القيم ص ١٥ ، ١٦ .

وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يعرج على شيء .

وقيل : (على) فيه للوجوب ، أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه .

وقال الكسائي : انه على التهديد والوعيد . نظير قوله تعالى (ان ربك لبالمرصاد) (١)

كما يقال طريقك عليّ ، وممرك عليّ ، لمن تريد اعلامه بانه غير فائت لك ، ولا معجز (٢)
نراه مورداً الآراء التي قيلت في هذه الآية ، مبيناً ما بين الآراء من اختلاف ، ثم يحتاج لبعضها دون بعض ، محكماً عقله وذوقه ، فلتستمع اليه حين يقول :

وهذا يحتمل أمرين - يريد رأي الحسن - ان يكون اراد به ، انه من باب اقامة

الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت اداة «علي» مقام «إلى» .

والثاني انه اراد التفسير على المعنى ، وهو الأشبه بطريق السلف اي صراط موصل الي .

وأما من فسره بالوجوب ، أي عليّ بيان الاستقامة والدلالة عليه . فالمنى صحيح لكن

في كونه هو المراد بالآية نظر لانه حذف في غير موضع الدلالة ولم يؤلف الحذف المذكور ،

ليكون مدلولاً عليه اذا حذف بخلاف عامل الظرف اذا وقع صفة ، فانه حذف مألوف

معروف ، حتى انه لا يذكر البتة .. فاذا قلت : له درهم عليّ كان الحذف معروفاً

مألوفاً ، فلو أردت عليّ نقده ، أو عليّ وزنه وحفظه ، ونحو ذلك ، وحذفت ، لم

يسغ ، وهو نظير : عليّ بيانه المقدر في الآية اما قول الكسائي : فالسياق يأبى هذا

ولا يناسبه لمن تأمله فانه قاله مجيباً لا يلبس الذي قال (لاغوينهم اجمعين الاعبادك

المخلصين) (٣)

فانه لاسبيل لي إلى اغوائهم ولا طريق لي عليهم ، فقرر الله عزّ وجل ذلك أتم التقدير

واخبر ان الاخلاص صراط عليه مستقيم . فلا سلطان لك على عبادي الذين هم علي هذا

الصراط ، لانه صراط عليّ ولا سبيل لأبليس إلى هذا الصراط ، ولا الحوم حول ساحته

فانه محروس محفوظ . لله فلا يصل عدو الله إلى اهله ، فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً

(١) سورة الفج لآية ١٤ .

(٢) ابن القيم ، التفسير القيم ص ١٥ .

(٣) سورة الحجر ، قم الآية ٤٠ .

ودلالة ، فتأمله (١) وحين اطمأن به تقرير الدليل شرع في دفع توهم قد يجري في الخاطر ، بقوله : فان قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الاليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء لا أداة «على» التي هي للوجوب : ألا ترى انه لما اراد الوصول ، قال : « (انّ الينا اياهم ، ثم ان علينا حسابهم) (٢) وقال (الينا مرجعهم) (٣) ، ثم ان علينا حسابهم) (٤) و (انّ علينا جمعه وقرآنه) (٥) و (وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها) (٦) ونظائر ذلك

قيل في أداة «على» سر لطيف . وهو الأشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق . كما قال في حق المؤمنين (أولئك على هدى من ربهم) (٧) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (فتوكل على الله انك على الحق المبين) (٨) والله عز وجل هو الحق ، وصراطه حق ، ودينه حق فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكأن في اداة (على) على هذا المعنى ما ليس في اداة «إلى» فتأمله ، فانه سر بديع

فان قلت : فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً . وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق ، وعلى الهدى ؟

قلت : لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه ، واستقامته اليه ، فكأن في الأتيان باداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته وهذا بخلاف الضلال والريب ، فانه يؤتى فيه باداة «في» الدالة على انغماس صاحبه ، وانقماعه وتدسسه فيه ، لقوله تعالى (فهم في ريبهم يترددون) (٩) وقوله (الذين كذبوا باياتنا صم وبكم في

-
- (١) ابن القيم الجوزية ، التفسير القيم ص ١٦ .
 - (٢) سورة الغاشية ، رقم الآية ٢٥ ، ٢٦ .
 - (٣) سورة يونس ، رقم الآية ٢٣ .
 - (٤) سورة الغاشية ، رقم الآية ٢٦ .
 - (٥) سورة القيامة ، رقم الآية ١٧ .
 - (٦) سورة هود ، رقم الآية ٦ .
 - (٧) سورة لقمان ، رقم الآية ٥ .
 - (٨) سورة النحل / رقم الآية ٧٩ .
 - (٩) سورة التوبة ، رقم الآية ٤٥ .

الظلمات (٤) وقوله (فذرهم في غمرتهم حتى حين) (٥) ، وقوله « وانهم لنفي شك منه مريب) (٣) وتأمل قوله تعالى .

(وانا واياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (٤) ، فان طريق الحق تأخذ عاوا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير ، وطريق الضلال ، تأخذ سفلا ، هاوية بسالكها في أسفل سافلين . ونحن نتقبل باعجاب شديد هذا الذي ذهب إليه ابن القيم ، وبه يستقيم معنى الآية الكريمة ، ويتجلى بمراعاته المعنى المقصود منها .

وبعد فهذه المامة عجلى ، ولمحة خاطفة ، ولو أردنا استقصاء آراء ابن القيم لأعوزنا وقت طويل ، ولكن حسبنا اننا اوردنا نماذج ترينا رصانة حسه اللغوي ، وتفطينه إلى مادي وخفي من اسلوب القرآن ، وكأني به يهيب بقارئ القرآن ان يستكنه المعنى ، دون الأقتصار على اللفظ ، وان يغوص إلى اعماق الأعماق ، كما نلمس مدى حفاوته بالقرآن ، ومكانته في نفسه ومدى حرصه على فهمه له ، وذلك لايعرف فضل القرآن إلا من أوتي حظا وافرا من تذوقه لأسلوبه .

-
- (١) سورة الأنعام ، رقم الآية ٣٩ .
 - (٢) سورة المؤمنون ، رقم الآية ٥٤ .
 - (٣) سورة هود ، رقم الآية ١١٠ .
 - (٤) سورة سبأ ، رقم الآية ٢٤ .

المصادر والمراجع

- ١ - الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ، طبع بمطبعة دائرة المعارف النظامية . حيدر آباد ١٣١٦ هـ .
- ٢ - البحر المحيط : لأبن حيان ، الطبعة الأولى . مطبعة السعادة . مصر ١٣٢٨ هـ .
- ٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي . الطبعة الأولى . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .
- ٤ - بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ، نشر دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان .
- ٥ - التبيان في تفسير القرآن : للطبرسي ، المطبعة العلمية في النجف سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
- ٦ - تفسير أبي السعود : لأبي السعود العمادي ، مطبعة محمد علي صبيح واولاده .
- ٧ - التفسير القيم لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، طبع لجنة التراث العربي . بيروت . لبنان .
- ٨ - التفسير الكبير : الرازي ، الطبعة الثانية . نشر دار الكتب العلمية .
- ٩ - تفسير الكشاف للزمخشري ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت . لبنان .
- ١٠ - الجامع لاحكام القرآن للقرطبي مصورة عن طبعة دار الكتب . نشر دار الكتاب العربي . القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١١ - دلائل الأعجاز لعبد الفاهرة الجرجاني ، تعليق احمد مصطفي المراعي الطبعة الأولى .
- ١٢ - روح المعاني للألوسي ، الطبعة الأولى مطبعة بولاق ١٣٠١ .
- ١٣ - شرح الأشموني على الفية ابن مالك تحقيق وشرح محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية مطبعة الحلبي بمصر ١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٩ م .
- ١٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الجناي ، طبع بيروت .
- ١٥ - اعراب القرآن ، النحاس مطبعة العاني . بغداد ، تحقيق الدكتور زهير غازي
- ١٦ - لسان العرب لابن منظور ، دار صادر . بيروت .

- ١٧ - المثل السائر لابن الأثير ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة الحلبي ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
- ١٨ - مجاز القرآن لابي عبيدة ، الطبعة الأولى ، نشر محمد سامي أمين الخاوي ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م .
- ١٩ - مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، دار احياء التراث العربي تحقيق الحاج السيد هاشم .
- ٢٠ - المذكر والمؤنث لابي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) تحقيق الدكتور طارق عبد عون الجنابي . الطبعة الأولى ، مطبعة العاني / بغداد ١٩٧٨ م .
- ٢١ - معاني القرآن للفراء ، تحقيق محمد علي النجار احمد نجاتي . مطبعة دار الكتب القاهرة - ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .